ثلث الليل الأخير نزل الجبار سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا فقال لا يسأل عن عبادى غيرى ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ، هل من داع فاستجيب له ، هل من سائل فأعطيه . وفى حديث عمرو بن عنبسة عليك بصلاة آخر الليل فإنها مشهودة محضورة ، يعنى يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار .

الفصل الثالث عشر

فيه كتاب جامع ما يستحب أن يقول العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد وفى يقظته عند الصباح

ليقل إذا استيقظ من منامه بكرة أصبحنا وأصبح الملك للّه، والعظمة للّه، والبهاء للّه، والقدرة للّه، والعزة للّه، والتسبيح للّه. أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، أللّهم إنا نسألك أن تبعثنا فى يومنا هذا إلى كل خير، ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجرّه إلى مسلم فإنك قلت وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى . أللّهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ، أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما فيه ، بسم اللّه ما شاء اللّه، لا قوّة إلا باللّه ما شاء اللّه ، كل نعمةٍ من اللّه ما شاء اللّه، الخير كله بيد اللّه، بسم اللّه لا يصرف السوء إلا اللّه، رضيت باللّه عز وجل رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . وليقرأ المعوّذتين فإذا أمسى قال مثل ذلك كله إلا أنه يقول أمسينا وأمسى الملك للّه عز وجل، أسألك خير هذه الليلة. ولا يدعه أن يقول فى كل ليلة بسم اللّه الذى لا يضرّ مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ، أعوذ بكلمات اللّه التامات وأسمائه كلها من شرّ ما ذرأ وبرأ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم. وإنْ يقل دخوله من الخلاء عند وقت السحر كان أفضل كيلا يشغله عن الذكر ، يجعل ذلك فى آخر النهار أو من أول الليل ، فقد فعل ذلك كثير من الصالحين وهو حسن ، إلاّ أن دخول الخلاء عند الصباح أصلح للجسد من جهة الطب وأنظف للطهارة سيما لمن يأكل بالنهار ،

ذكر ما يستحب من القرآن

إذا أخذ العبد مضجعه للنوم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه ، أللّهم إنْ أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها ، وإنْ أرسلتها فاعصمها واحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .- وعلّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم البراء بن عازب أن يقول إذا أخذ مضجعه ليلا: أللّهم إنى وجهت وجهى إليك ، وفوّضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رهبة ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبرسولك الذى أنزلت .- وروى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول عند النوم اللّهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك - وأنه أمر أن يقال الحمد للّه الذى علا فقهر ، الحمد للّه الذى بطن فجبر ، الحمد للّه الذى ملك فقدر ، الحمد للّه الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير . وليقل بعد ذلك اللّهم إنى أسألك الراحة بعد الموت ، والعفوعند الحساب . اللّهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشياطين وشركهم . وليقرأ خمساً من أوّل سورة البقرة ، وثلاثاً من آخرها وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها . وليقرأ قوله عز وجل وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، والآية التى بعدها إلى قوله تعالى لقوم يعقلون . ويقال من قرأ هذه الآية عند منامه حفظ عليه القرآن فلم ينسه ، ولا يدع أن يقرأ آخر بنى إسرائيل الآيتين قل ادعوا اللّه أو ادعوا الرحمن ، وهذه الآية من سورة الأعراف إن ربكم الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، فإنه يدخل فى شعاره ملَك يوكل بحفظه ويستغفر له. وليقرأ الخمس الآيات من أوّل سورة الحديد ، والثلاث من آخر سورة الحشر ، وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو اللّه أحد ، والمعوّذتين ، وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده . كذلك روى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم مِنْ قوله وفعله. وليقرأ عشراً من أوّل الكهف، وعشراً من آخرها ، وهذه الأى لقيام الليل . وأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقراءة قل يا أيها الكافرون عند النوم ، وكان عليه السلام يقول ما أرى أن رجلا مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من سورة البقرة آمن الرسول ، وليقل اللّهم أيقظنى فى أحب الساعات إليك، واستعملنى بأحب الأعمال لديك، التى تقربنى إليك، وتبعدنى من سخطك بعداً ، أسألك فتعطينى، واستغفرك فتغفر لى، وأدعوك فتستجيب لى . أللّهم لا تؤمّنى مكرك، ولا تولنى غيرك، ولا ترفع عنى سترك، ولا تُنسنى ذكرك، ولا تجعلنى من الغافلين . ويقال من قال هذه الكلمات عند نومه أهبط اللّه سبحانه وتعالى ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة، فإن صلى ودعا أمّنوا على دعائه ، وإن لم يقم تعبدتْ الأملاك فى الهواء وكُتب له ثواب

عبادتهم . ثم ليسبح ثلاثاً وثلاثين مرة، وليحمد ثلاثا وثلاثين مرة، وليكبر ثلاثا وثلاثين مرة، وإن أحبّ ربّعها خمسا وعشرين مرة فقال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمسا وعشرين مرة ، فهن يجمعن له مائة كلمة وهو أخف عليه للمداومة .

وروينا عن مطرف عن الشعبى عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام، وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه مقبوض فى تلك الليلة : أللّهم ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ، ربنا وربّ كل شىء ، مُنزِّل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . أللّهم أنت الأوّل فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، إقض عنى الدين، وأغننى من الفقر . وليسبّح ثلاثا وثلاثين مرة ، وليكبّر أربعا وثلاثين مرة ، وإن شاء ربّعها خمسا وعشرين مرة وزاد فيها التهليل فهن يجمعن له مائة كلمة ، وهو أخف عليه للمداومة . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وندب إليه فى أدبار الصلوات الخمس وعند النوم ، فهذا جامع ما يُستحب من قراءة الآى والدعاء عند النوم .

ذكر هيئة العبد عند النوم وأهبته للمضجع ومعنى الاعتبار بذلك لذوى الأبصار

يستحب للعبد أن ينام على طهارة سابغة وإلا مسح أعضاءه بالماء مسحا ، وقد كانوا يستحبون السواك عند النوم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان بعض السلف يجعل عند رأسه سواكه وطهوره ، فإذا انتبه من الليل استاك ومسح أعضاءه بالماء مسحا ، وكانوا يذكرون الله عز وجل بالتلاوة والتسبيح فى تقلّبهم ويعدون هذا يعدل قيام الليل. وقد روى هذا الخبر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعن غيره ، وروينا عن رسول الله صلى اللهّ عليه وسلم نحوه، وأنه كان يستاك فى كل ليلة مرارا عند كل قوْمة من نومه ، فليعدْ العبد طهوره وسواكه عند رأسه وينوى قيام الليل ، فأى وقت استيقظ توضأ وصلّى ، أو قعد فقرأ، أو دعا وذكر الله عز وجل واستغفره ، أو تفكّر فى آلائه وعظمته ومعانى قدرته ، ففى أى وجه أخذ من هذه المعانى فهو ذِكْر ، وقد استعمل بذلك وفيهِ قُربة إلى الله عز وجل ، وهو فضل من الله تعالى ورحمته عليه .

ولا ينبغى للعبد أن يبيت وله شىء يوصى فيه إلا ووصيّته مكتوبة عنده ، فإنه لا يأمن القبض بالوفاة . وقد ندب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى ذلك فى قوله لا ينبغى لعبد أن ينام ليلتين وله شىء يوصى فيه إلاّ ووصيته مكتوبة عنده ، ويقال من مات عن غير وصية لم يؤذَن فى الكلام فى البرزخ إلى يوم القيامة ، تتزاور الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيما بينهم إلى يوم القيامة ، فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات عن غير وصية فيكون ذلك حسرة عليه بينهم .

وموت الفجأة تخفيف ومستحب للمؤمن الفقير للثواب، الذى لا مال ولا دين عليه ، فأما المُثقَل بالدين، والمخْلَط فى الدين، ومن له مال أو هو مصر على مَطْل، فإن موت الفجأة لهؤلاء عقوبة ومكروه . ولا ينبغى للعبد أن يبيت إلا تائبا من كل ذنب ، سليم القلب لجميع المسلمين ، لا يحدّث نفسه بظلم أحد، ولا يعتقد على خطيئة إنْ استيقظ . وقد جاء فى الخبر مَنْ أوى إلى فراشه لا ينوى ظلم أحد، ولا يحقد على أحد، غُفِرَ له ما اجترم . وليستقبل فى نومه القبلة ، واستقبال القبلة على ضربين ، إنْ كان مستلقيا فاستقباله القبلة أن يكون وجهه إليها مع أخمص قدميه كحال الميت المُسْجَى ، وإنْ كان نائما على جنب فاستقبال القبلة أن يكون وجهه إليها مع شقه الأيمن كهيئة المُلْحَد فى قبره، فسيصير إليه عن قريب، وَليُذَكّر بنومه على هذين الحالين عند موته وحين اضطجاعه فى قبره . وقد قال اللّه عز وجل ألم نجعل الأرض كِفَاتاً ، أحياء وأمواتا فى أحد الوجهين ، وهو مذهب أهل التفسير، أى يكفتهم ويجمعهم أحياء على ظهرها، وأمواتا فى بطنها . وقد جعل اللّه سبحانه وتعالى النوم من آياته الدالة عليه لأهل السمع منه وهو سمع اليقين ، وقرنه بالابتغاء من فضله فقال عز وجل ومن آياته منامكم بالليل والنهار، وابتغاؤكم من فضله، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . وكان فقراء أهل الصُفّة وبعض زهّاد التابعين إذا رقدوا لا يجعلون بينهم وبين الأرض شيئا، فكان أحدهم يباشر التراب بجلده ويطرح ثوبه فوقه، يقول منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، كأنهم كرهوا الترفع عليها والوقاية منها . ويجدون ذلك أرق لقلوبهم وأبلغ فى تواضعهم .

ومثل النوم عند أهل الاعتبار مثل البرزخ هو بين الدنيا والآخرة ، كذلك النوم بين الحياة والموت ، فإذا كُشِفَ حجاب النوم ظهرت الدنيا بالحكمة ، وكذلك إذا كشف الغطاء ظهرت الآخرة بالقُدرة فصارت الدنيا كالأحلام فى النوم . وقد قال اللّه عزّ وجل وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيها . وكان بعضهم يقول عجباً لمن يعصى اللّه عزّ وجل ثم ينام

بعد ذلك . وذكر بعض العلماء عن اللّه عزّ وجل إنْ كنتم تعصونى فاخرجوا من بساطى ولا تناموا فى قبضتى . وقال لقمان لابنه يا بنىّ إنْ كنت تشك فى الموت فلا تنم، فكما أنك تنام فكذلك تموت . وإنْ كنت تشك فى البعث فإذا نمت فلا تنتبه ، فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تُبعث بعد موتك . فليتذكر العبد عند نومه حين موته ، وليعلم أن اللّه تعالى يكون له بعد موته كما كان العبد له قبل نومه ، فلينظر على أى حال نام وعلى أى هَمٍّ توفاه اللّه عليه ، وليتذكر بانتباهه البعث فإن العبد يُبْعَث على ما مات عليه فى الدنيا ، فيبعث بهَمِّه ويُحشر مع محبوبه، كما ينتبه النائم عن هَمِّه إلى محبوبه الذى نام عنه . وفى الخبر أن المرء مع من أحب وله ما احتسب . وروى عنه صلّى اللّه عليه وسلم من مات على مرتبة من المراتب بُعِثَ عليها يوم القيامة . وروينا عن كعب الأحبار قال إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة .

بيان آخر من الاعتبار لأهل التبصرة والتذكار

وليعلم العبد أن اللّه عزّ وجلّ يكون له بعد بعثه من قبره كما كان العبد له بعد بعثه من نومه، فلينظر إلى أى حال يُبْعَث ، وإنْ كان العبد لنظر مولاه مُكَرِّما ، ولشأنه وحُرُماته مُعَظِّما، وإلى محبوبه ومرضاته ومسرته من النعيم المقيم مُسْرِعا، كان اللّه تعالى فى آخرته لوجهه مكرِما . وإنْ كان العبد فى حق مولاه متهاونا، وبأمره مستخفا، ولشعائره مستصغرا كان اللّه تعالى له مُهينا وبشأنه متهاونا . قال اللّه تعالى وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء. ثم قال قليلا ما تذكّرون، مُوَبِّخاً لهم بذلك. وقال فى مثله أفنجعل المسلمين كالمجرمين، ثم قال مالكم كيف تحكمون، ثم أخبر بحكمه فيهم فقال أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم، ساء ما يحكمون. هكذا تقدير الكلام وهو من المقدم والمؤخر، فرفع حسناتهم وأخبر بسوء حكمهم، ثم ذكر حكمهم عنده فى المحيا والممات فقال سواء محياهم ومماتهم، أى كما كانوا فى الحياة كذلك يكونون بعد الوفاة، ثم عقب ذلك يذكر عدله فى خلْقه فقال وخَلَقَ اللّه السموات والأرض بالحق، ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، فكان هذا فصل الخطاب وتذكار أولى الألباب . وقال فى معناه، وأمر بتدبر كلامه، وأمر بتذكر العقلاء عن خطابه، فقال كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدبّروا آياته، وليتذكر أولو الألباب ، هل يتدبرون فيجدون أنّا نجعل المفسدين كالمصلحين أو نجعل المتقين كالفاسقين ، وهو قوله تعالى أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم

نجعل المتقين كالفجار. فالتدبر التفهم، والتذكر التقوى والعمل .

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ أحب أن يعلم منزلته عند الله عزّ وجلّ فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه، فإن الله عز وجل يُنزِل العبد عنده بحيث نزله العبد من نفسه، فإذا نام العبد على طهارة وذِكْر، وعن مثل هذه المشاهدة والفكر، فإن مضطجعه يكون مسجدا، وأنه يكتب مصليا حتى يستيقظ، ويدخل فى شعاره مَلَك، فإن تحزك فى نومه فذَكَر الله عز وجل دعا له الملك واستغفر له. وفى الخبر إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة، وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تَصْدُق، فإن غلبه النوم حتى يصبح حُسِبَ له قيام ليلة وكان نومه عليه صدقةً، ومن كان هذا وصفه فى منامه يسبق كثيرا من العباد فى قيامهم عن شهود غفلة وسهو، وقد روينا فى خبر نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح .

ذكر ما يستحب من القول عند القيام إلى التهجد

فإذا قام العبد من الليل متهجداً فليقل الحمد لله الذى أحيانى بعد إذ توفانى وإليه النشور، وليقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ، وليَستنّ وليتوضأ ويقول سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت، أستغفرك وأسألك التوبة فاغفر لى وتُبْ علىّ إنك أنت التّواب الرحيم. اللّهم اجعلنى من التوّابين واجعلنى من المتطهرين، واجعلنى صبورا شكورا ، واجعلنى أذكرك كثيرا وأسبحك بكرةً وأصيلا، ثم يرفع رأسه إلى السماء فيقول أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سَخطك ، وأعوذ بك منك، لا أُحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أنا عبدك ابن عبدك، ناصيتى بيدك، جارٍ فىّ حكمك ، عدلٌ فىّ قضاؤك، هذه يدى بما كسَبَتْ، وهذه نفسى بما اجترَحَتْ، لا إله إلاّ أنت، سبحانك إنى كنت من الظالمين، عملت سوأً وظلمت نفسى فاغفر لى ذنبى إنك أنت ربى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فلا إله إلا أنت ، لا إله إلا أنت . فإذا قام إلى الصلاة متوجهاً فليقل اللّه أكبر كبيرا ، والحمد للّه كثيرا ، وسبحان اللّه بكرةً وأصيلا، ثم ليسبح عشراً ، وليحمد عشراً ، وليهلل عشراً ، وليكبر عشراً ، وليقل اللّه أكبر نو الملكوت والجبروت، والكبرياء والجلال، والعظمة والقدرة، وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى قيامة للتهجد: أللّهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ولك الحمد، أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد،

أنت نور السموات والأرض ولك الحمد، أنت زين السموات والأرض ولك الحمد، أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق ومنك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق. اللّهم لك أسلمتُ، وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر اللّهم يارب لى ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت. اللّهم آت نفسى تقواها. اللّهم زكّها أنت خير مَنْ زكّاها، أنت وليُّها ومولاها. اللّهم أهدنى لأحسن الأعمال لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت، أسألك مسئلة البائس المسكين، وأدعوك دعاء المفتقر الذليل، فلا تجعلنى بدعائك ربِّ شقيا، وكن بى رؤفاً رحيما، يا خير المسؤلين، ويا أكرم المُعطين. ويُستحب أن يفتح صلاته بركعتين خفيفتين، ويستحب له أن لا يأكل شيأ ولا يشرب ماء حتى يقضى همته من صلاته، فإن العبد إذا استيقظ من نومه يكون جام القلب فارغ الهَمّ، فإذا أكل أو شرب تغيّر قلبه عن هيئته فَلْيُغَيِّب أكله، إلا أن يخاف أن يَفْجَأه الفجر إنْ لم يتسحر أو يشرب، فليبدأ حينئذ بذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الفصل الرابع عشر

فى ذكر تقسيم الليل ونومه ووصف القائمين والمتهجدين

قد قرن الله سبحانه وتعالى قوّام الليل برسوله المصطفى وجمعهم معه فى شكر المعاملة وحُسن الجزاء فقال تعالى: إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثُلُثَه وطائفةٌ من الذين معك. وقد أخبر الله سبحانه أن قراءة الليل أشدّ وطأً للقلب وأقوم قيلاً للحفظ والذِكْر، أى يواطىء القلب اللسان بالفهم والحفظ، وقد سمّى الله تعالى أهل الليل علماء، وجعلهم أهل الخوف والرجاء، وأخفى لهم قرة العين من الجزاء، فقال أمّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، ثم قال هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وهذا من المحذوف ضده لدلالة الكلام عليه، والمعنى أمّن هو هكذا عالمٌ قانتٌ مطيعٌ لا يستوى مع من هو غافلٌ نائمٌ ليله أجمع ، فهو غير عالم بما يحذر وبما يرجو من ربه عز وجل. وقال عز وجل فى وصفهم فى الدنيا ووصف ما أعّد لهم فى الآخرة – والذين يبيتون لربهم سُجَداً وقياما، تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربهم خوفا وطمعا– أى تنبو عن الفراش فلا تطمئن لما فيها من خوف الوعيد ورجاء الموعود ، ثم قال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا